رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

صاحب السر..
له مقام معلوم

• عبد الله بن مسعود •

obeikandl.com

obeikandl.com

كيف استطاع أولئك الرجال من الفقراء البسطاء تحت الأسمال المتواضعة، أن يغيروا مسار ومصير التاريخ، وأن يقهروا القوى العظمى، وأن يحرروا البشرية من وثنية الضمير، بعد أن زحفت مواكب الإسلام بفتوحاتها من صحراء الشجيرات اليابسة والحجارة التى تلفظ قيظ السعير، إلى آفاق ممتدة بين أركان الأرض الأربعة؟! هل هى القدرة النفسية الهائلة لأولئك الرجال، وقد عقدوا العزم على التضحية والبذل؟! من الصعب تحديد الإجابة الشافية، ولكن قد نكتفى بشهادة التاريخ الإنسانى والتى تقول بإيجاز: أن العظمة الباهرة لأولئك الرجال من أصحاب الرسول الكريم ﷺ، تبدو من فرط إعجازها كالأساطير!!

وحين نطل على المشهد العظيم، نعلم يقينا أنه ليس غريبا ـ مثلا ـ أن يتحدى راعى الغنم، الفقير النحيل، دقيق الجسم، سادة قريش وأشراف مكة، وأن يجهر بالقرآن الكريم لأول مرة، وهو لا يزال ذلك الغلام الفقير الضعيف، ولكنه حين يسمع أصحاب الرسول ﷺ ـ وهم قلة وقتئذ ـ يقولون: "والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟" فقال عبد الله بن مسعود: أنا.. ولكن صحابة الرسول ﷺ يخشون عليه من العواقب، ويقولون: إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.. ولكنه يرد عليهم بإصرار قائلا: دعونى، فإن الله سيمنعنى.. ويجهر بالقرآن الكريم لأول مرة فى أندية قريش، ويتعرض لقسوة رؤوس الكفر، ويصاب فى وجهه وجسده.. ثم يكرر الجهر بالقرآن فى اليوم التالى.. وحين يقول له أصحابه من المؤمنين: حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون.. لا يتوقف بل يواصل

بصوته العذب قراءة آيات من القرآن الكريم، صابرا على الهول فى سبيل الله.. حتى قال أبو جهل ذات يوم: ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذا الفتى، آراه فى كل وجه مذيعا دعوة محمد مفسدا بها قلوب الناس!!

حقا.. إنها إرادة تقهر الجبارين!!

...

وليس غريبا أن نجد أمامنا نموذجا باهرا للثبات على الحق، وصموده مع الرسالة، وأن يخوض ذلك الفتى الناحل القصير، المعارك والمشاهد، مع رسول الله ﷺ، ومع خلفائه من بعده، فارسا يصول فى الميدان، سريع الحركة، لا يكاد يرى فى مكان، حتى يرى فى مكان غيره، حتى رأى أعظم إمبراطوريتين فى عصره، تفتحان أبوابهما لرايات الإسلام!! وليس غريبا أن يصبح راعى الغنم الأجير الفقير، فقيه الأمة، وعميد حفظة القرآن الكريم، وأن يقول فيه رسول الله ﷺ: "لو كنت مؤمرا أحد دون شورى المسلمين، لأمرت ابن أم عبد".. وحين يسند إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيت مال الكوفة.. يرسل لأهلها قائلا: إنى والله الذى لا إله إلا هو، قد آثرتكم به على نفسى، فخذوا منه وتعلموا..

حقا.. لقد تسامى خلودا، وعلما، وشرفا..

...

...

كان الفاروق عمر رضي الله عنه يدرك تماما، كما كان يردد القول بأن عبد الله

ابن مسعود "قد ملىء فقها "وأن رسول الله ﷺ يحبه حبا عظيما، يحب منه ورعه وفطنته، وأمانته التى كشفت عن معدنه منذ ذلك اليوم البعيد، وحين كان يرعى غنيمات لعقبة بن أبى معيط، فى ظاهر مكة، وقد أقبل عليه رجلان أدركهما الجهد من مشقة سير طويل، ومن ظمأ يوم شديد الحرارة، وسأله أحد الرجلين: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا فإنا ظماء؟ قال الغلام: إنى مؤتمن، ولن أسقيكما، ولو كانت هذه الغنيمات لى ما بخلت عليكما بما يروى العطش الشديد.. حينئذ يتقدم الرجل الثانى ذو النظر المطمئن، وضيائه الغامر يتجلى على وجهه، فقال للغلام: فهل عندك من جذعة (شاه صغيرة) لم ينز عليه الفحل؟ قال الغلام: أما هذا فنعم.. ثم يمضى غير بعيد، ويعود ومعه شاه، فيعتقلها الرجل المترع سموا وعظمة، ثم يمسح على ضرعها، ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله، فإذا الضرع قد حفل وامتلأ لبنا، ويأتى صاحبه بصخرة متقعرة فيحلب فيها ويسقيه، ثم يسقى الغلام، ثم يشرب هو، ثم يقول للضرع: أقلص.. فيعود الضرع كعهده السابق.. ويبهت الغلام راعى الغنم الناحل الضعيف، ويقف واجما ذاهلا بعد أن يمضى الرجلان، وقد أطال وقوفه الحائر حتى رأى الشمس تنصرف إلى مغربها!!

ويعود الفتى إلى مكة وبين يديه غنيماته، ذاهل النفس، مشرد العقل، ولكنه مطمئن القلب إلى شىء ما، حين يستعيد صوت ذلك الرجل الممتلئ عذبا، وقد أبصر من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة.. وأنفق سائر الليل يفكر، وحين رأى الصبح قد أسفر، انطلق يسعى، باحثا عن حقيقة الرجلين، ولم تستقر نفسه اللاهثة حتى عرف من هو الرجل المطمئن الذى تتجلى إنسانيته ورحمته، ومن هو صاحبه، وأين مكانهما.. إنه الأمين محمد بن عبد الله صاحب الحدث الأعظم

الذى يشغل سادة قريش، ومعه صاحبه الصديق ابن أبى قحافة.. ويسارع الفتى خطواته اللاهثة، حتى يجلس بين يدى رسول الله ﷺ مبايعا.. سادس ستة من الأوائل المبكرين، الذين أسلموا واتبعوا الرسول الكريم ﷺ، ومنذ ذلك الوقت أصبح ملازما لأستاذه العظيم، لا يفارقه فى سفر، ولا فى حضر، يدخل عليه بيته أكثر مما يدخل غيره، ويجالسه أكثر مما يجالسه سواه، حتى عرفه الصحابة بصفة "صاحب السواد" أى صاحب السر.. وهم لا يرون الرسول ﷺ إلا وكان ابن مسعود معه.. وقد فاز بأن يأذن له رسول الله ﷺ أن يطرق بابه فى أى وقت يشاء من ليل أو نهار.. ويعترف أصحاب الرسول ﷺ بأنه "كان يؤذن له إذا حجبنا".. أية ثقة تلك التى حظى بها ابن مسعود، شديد القرب من الرسول ﷺ، وحتى يقول عنه "حذيفة" ما رأيت أحدا أشبه برسول الله ﷺ فى هديه وسمته، من ابن مسعود..

حقا.. له مقام معلوم..

....

....

وفى سيرة الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ـ أحد أروع نماذج البشرية الفاضلة ـ دروس وعبر، نكتفى منها بإشارات عابرة.. حيث نجده فى هذا المقام المعلوم العالى الذى يزهو بوصايا رسول الله ﷺ لأصحابه، بأن يقتدوا بابن مسعود (تمسكوا بعهد ابن أم عبد) وأن يتعلموا منه كيف يتلو القرآن (من أحب أن يسمع القرآن غضا كما أنزل، فليسمعه من ابن أم عبد).. وفى هذا المقام الذى تسامى علوا بملازمته للرسول ﷺ، مما يجعله أهلا للتحدث عنه، أو التحدث باسمه، كان

"ابن مسعود" نادرا ما يتحدث عن الرسول ﷺ الذى يجله إجلالا عظيما يملك عليه نفسه، وحين يروى عن الرسول ﷺ ، تأخذه الرعدة الشديدة، ويبدو عليه القلق والاضطراب خشية أن ينسى، فيضع حرفا مكان حرف!! ويروى صحابة الرسول ﷺ أن ابن مسعود حدث يوما حديثا، فقال: "سمعت رسول الله ﷺ . . ثم أرعد وأرعدت ثيابه، ثم قال: أو نحو ذلك. . أو شبه ذلك، أو قريبا من هذا قال الرسول ﷺ. . ويتحدر العرق عن جبهته!!

وصاحب المقام المعلوم، ارتفع علوا عن ملذات الدنيا حين فتحت أبوابها طائعة خاشعة للمسلمين، وكان له نصيبا من الأموال الوفيرة، ومن المناصب العليا، وهو من بذل وقاتل واحتمل الهول فى سبيل نشر راية الإسلام فى ربوع الأرض. . ولكن فلسفة ابن مسعود فى الزهد، جعلته إماما من أئمة الهدى والنور والتقوى، وهو من واجه الفقر منذ أن نشأ فى أرض هذيل، نشأة أمثاله من أهل البادية، حياة شظف وعسر، ولا يكاد يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه، وتضيق به سبل العيش فى أرض نجد، فيهبط مكة ليأوى إلى أخواله من بنى زهرة، ولم يألف حياة البطالة، فأصبح راعيا للغنم، فهو من الفقراء البسطاء قبل الإسلام، ومن الفقراء البسطاء بعد إسلامه، رغم أن الإسلام منحه نصيبا رابيا من خيرات الفتوحات الإسلامية، ولكنه ظل مؤمنا وفيا لفلسفته (خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى) وقد آتاه الله الحكمة ،مثلما أعطاه التقوى، ولم يتهافت يوما على ثراء أو منصب أو جاه، ولم يكن زهده عزوفا عن الدنيا والعمل، فهو من يعرف قيمة العمل وأهميته قائلا: "إنى لأمقت الرجل، إذ أراه فارغا، ليس فى شىء من عمل الدنيا، ولا

عمل الآخرة" . .

إن مؤمنا مـن هذا الطراز، ليصـعب علينا الإلمام بكـل مآثره. وهذه بعض لمحات من سيرة صاحب المقام المـعلوم، وقد حظى بالخير كله على لسان صحابة الرسول ﷺ : "ما رأينا رجلا كان أحسن خلقا، ولا أرفق تعليما، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من عبد الله بن مسعود. ."

obeikandl.com